

أرملة مونتييل

لما مات ضون خوسيه مونتييل شعر كل سكان البلدة انهم قد انتقموا، الا أرملة. ولكن مرت عدة ساعات قبل أن يصدق الجميع انه مات حقاً. كثيرون منهم استمروا على شكهم بعد ان رأوا في غرفة الميت الجثة بمخدرات واغطية كثانية داخل صندوق أصفر مقبب مثل بطيخة. كان مخلوق الذقن جيداً، لباساً ثياباً بيضاء وجزمة مبرنقة، ووجهه جعل الذين رأوه يفكرون انه لم يبد قط حياً كما بدا آنئذ. كان هو ضون شيبى مونتييل نفسه الذي تعودوا ان يروه ايام الأحد مستمعا الى قداس الثامنة، الفرق هو انه كان يمسك بيديه مسيحاً مصلوباً عوض السوط. لم يقتنع سكان البلدة بأنه ما كان يتصنع الموت حتى تمت لولة غطاء التابوت وحوط في الضريح العائلي الفخم.

بعد الجنازة، الشيء الوحيد الذي بدا لكل السكان — باستثناء الأرملة — أنه لا يصدق هو كون خوسيه مونتييل قد مات موتاً طبيعياً. بينما كان جميع هؤلاء ينتظرون ان يثقب ظهره بالرصاص في كمين، كانت ارملة متأكدة انها ستراه يموت على سريره شيخاً، معترفاً وبلا ألم، كقديس عصري. لم تغلط الا في بعض التفاصيل. مات خوسيه مونتييل في ارجوحة النوم ذات اربعة في الثانية بعد الظهر، بسبب الغضب الذي منعه منه الطبيب. لكن زوجته كانت تنتظر كذلك ان تحضر البلدة كلها الجنازة، وأن تجعل الزهور الكثيرة المرسله الدار تبدو صغيرة. ولكن لم يحضر سوى موالى النظام مثله والجمعيات الدينية، ولم تدخل الدار غير اكايليل الزهور التي ارسلها المجلس البلدى. أرسل ابنها من مقر عمله القنصلي بألمانيا وابنتاه الاثنتان من باريس بريقات في ثلاث صفحات. كان بينا انهم كتبوها واقفين، بالمداد العمومي لمكتب البريد، وأنهم مزقوا اوراقاً كثيرة قبل ان يتمكنوا من ايجاد 20 دولاراً من الكلمات. ما قال احد منهم انه سيرجع. وفي تلك الليلة، بينما كانت ارملة مونتييل تكي على الخدة التي كان الرجل الذي اسعدها يريح عليها رأسه، عرفت لأول مرة طعم الحقد، في الـ 62 من عمرها. كانت تفكر «سأعزل الى الأبد». «الأمر بالنسبة الى هو كما لو كانوا جعلوني في صندوق خوسيه مونتييل نفسه. لا أريد ان يبقى اى رابط بيني وبين هذا العالم». كانت صادقة.

تلك المرأة الهشة — التي عذبها التطير والتي تزوجت في الـ 20 امتثالاً لرغبة والديها بالرجل الوحيد الذي سمح لها برؤيته على مسافة اقرب من الـ 10 امتار — لم تكن قط على اتصال مباشر بالواقع. بعد ثلاثة ايام من اخراج جثة زوجها، ادركت من خلال الدموع انها

يجب ان تقاوم، ولكنها لم تتمكن من معرفة اتجاه حياتها الجديدة. كان لابد ان تنطلق من البداية.

كان يوجد بين الاسرار الكثيرة التي اخذها خووسيه مونتيل معه الى القبر سر تركيبة الخزينة. تكلف حاكم البلدة المشكلة. امر بوضع الصندوق في الفناء مسندا الى الجدار، وأطلق شرطيان النار ببندقيتهما على قفله. وصلت طوال صباح يكأمله الى سماع الأرملة الطلقات التي كانت صرخات حاكم البلدة تأمر بها، في دفعات متتابعة. «هذا هو ما كان ينقصنا»، فكرت. «خمس سنين وأنا أتوسل الى الله ان تكف الطلقات، وآلآن يجب ان اقبل شاكرة ان يطلقوا النار وسط داوي» في ذلك اليوم بذلت مجهودا لتركيز ذهنها، منادية الموت، ولكن، ما اجابها احد. كانت قد بدأت تنام لما هز الدار من اساسها انفجار هائل. كانوا قد اضطروا الى نسف الخزينة بالديناميت.

أطلقت أرملة مونتيل زفرة. لم يكن اكتوبر بأماطاره المستتعية يريد ان ينتهي وكانت هي تحس بالضيق في ابحارها بلا اتجاه وسط فوضى الثروة الفاحشة لخووسيه مونتيل. كان السيد كارميتشايل الحادام القديم والنشيط للعائلة قد تولى شؤونها. لما واجهت أرملة مونتيل الواقع الحسي لموت زوجها اخيرا خرجت من حجرة النوم لتعنتي بالدار. جردتها من كل زخرفة وأمرت بتغليف الأثاث بألوان حمزة، وجعلت اناشيط جنازية في صور الميت المعلقة على الحيطان. في شهرين من العزلة كانت قد اكتسبت عادة قضم الأطفال. وذات يوم انتهت — بعينين محمرتين منتفختين من كثرة البكاء — الى ان السيد كار ميتشايل يدخل الدار بالمظلة مفتوحة.

— سد تلك المظلة ياسيد كار ميتشايل — قالت له — بعد كل المصائب التي والتنا لم يكن ينقصنا غير ان تدخل انت بالمظلة مفتوحة.

ووضع السيد كار ميتشايل المظلة في الركن. كان رجلا اسود عمجوزا ذا بشرة لامعة ولباس ابيض وفتيحات صنعها بمذبة في حذائه للتخفيف من ضغط الكتب.

— سأخليه هكذا حتى ييبس فقط.

ولأول مرة منذ ان مات زوجها فتحت الأرملة النافذة.

— ما كَفَتْ كل هذه المصائب، انضاف اليها هذا الشتاء كذلك — تمتعت، قاضمة اظفارها —. يظهر ان المطر لن يتوقف ابدا.

— لن يتوقف لا اليوم ولا غدا — قال المدير —. هذه الليلة ما خلافي الكنب انام.

كانت هي تثق بالتنبؤات الجوية لكنب السيد كار ميتشايل. نظرت الى السويحة الموحشة وإلى الديار الصامتة التي لم تفتح ابوابها لمشاهدة جنازة خووسيه مونتيل، واحست

جيتند باليأس بأظفارها وأراضها التي لا حدود لها والالتزامات التي لاتحصى والتي ورثها عن زوجها ولن تتمكن ابدا من فهمها.

— العالم ارتكبت اخطاء في صناعته — قالت ناشجة.

الذين زاروها تلك الأيام دفعتم تصرفاتها الى التفكير انها فقدت صوابها. لكنها لم تكن قط مفيقة كما كانت وقتئذ. منذ قبل بداية المذبحة السياسية وهي تقضي صباحات اكتوبر الخريزة قبالة نافذة حجرتها مشفقة على الموتى ومفكرة ان لو لم يسترح الله يوم الأحد لتمكن من اكمال صنع العالم.

— كان يجب عليه ان يستغل ذلك اليوم كي لا تبقى هذه الأشياء الكثيرة ناقصة — كانت تقول — في نهاية المطاف كانت الأبدية كلها قدامه ليستريح.

الفرق الوحيد بعد موت زوجها هو انها وقتئذ كان لديها سبب معين لتصور افكار كئيبة.

وهكذا بينما كان اليأس يهلك ارملة مونتيل، كان السيد كار ميتشايل يحاول ان يتفادى الغرق. لم تكن الأمور تسير سيرا حسنا. بعد ان أصبح سكان البلدة ناجين من خطر خوسيه مونتيل الذي كان يحتكر التجارة المحلية بالإرهاب، اخذوا يقومون بعمليات انتقامية. لم يحجى الزبناء المنتظرون، فراب الحليب اثناء الانتظار في جواره التي كانت تملأ الفناء، واختبر العسل في قرياته، وعمر الجبن بدود غليظ في خزانات المستودع المظلمة. في الضريح المزين بمصابيح كهربائية وملائكة من مادة تشبه الرخام، كان خوسيه مونتيل يؤدي عن ست سنين من الاغتيالات والتعسفات. لم يكن احد في تاريخ البلد قد غنى الى تلك الدرجة في وقت قصير كذاك. لما وصل الى البلدة أول حاكم عينته الدكتاتورية، كان خوسيه مونتيل مؤيدا متعقلا لجميع الانظمة قضى نصف حياته لابسا كلسونا قاعدا في باب طحانة الرز التي يملكها. في وقت من الأوقات تمتع بسمعة اعتباره انسانا محظوظا ومؤمنا صادقا، لانه نذر بصوت عال ان يمنح الكنيسة تمثالا لسان خوسيه في حجم طبيعي اذا ربح في اليانصيب، وبعد ذلك بأسبوع ربح ستة كسور فأوفى نذره. المرة الأولى التي شوهد فيها بجذاء في قدميه كانت وقت وصول الحاكم الجديد. كان هذا نائب شرطة اعسر خشنا جاء بأوامر صريحة لتصفية المعارضين. بدأ خوسيه مونتيل متحولا الى مخبر السري. ذاك التاجر البسيط ذو المزاج الهادئ — شأن السمان — الذي لم يكن يثر اي تخوف، قسم خصومه السياسيين الى اغنياء وفقراء. الفقراء تقبوا بالرصاص في الساحة العمومية. والأغنياء اعطي اياهم اجل 24 ساعة ليغادروا البلدة. كان خوسيه مونتيل يخطط للمذبحة منزوها مع الحاكم نهارات بكاملها في مكتبه الخافت، بينما كانت زوجته تشفق على الموتى. عند مغادرة الحاكم المكتب كانت هي تقف في طريق زوجها.

— ذاك الرجل مجرم — كانت تقول — استخدم نفوذك في الحكومة ليأخذوا هذا الحيوان الذي لن يبقى انسانا واحدا في البلدة.

كان خوسيه مونتيل مشغولا جدا ايامئذ، وكان يبعدها دون ان ينظر اليها قائلا : «لا تكوني مهيوّلة». لم تكن صفقته في الواقع هي موت الفقراء بل طرد الأغنياء. بعد ان كان الحاكم ينقب ابوابهم بالرصاص ويحدد لهم الأجل لمغادرة البلدة، كان خوسيه مونتيل يشتري اراضيهم ومواشيهم بثمن يتولى هو تحديده.

— لا تكن احمق — كانت زوجته تقول له — ستفلس بسماعدتك اياهم وانقاذهم من الموت جوعا في مكان آخر، وهم لن يشكروا جميلك ابدا.

وكان خوسيه مونتيل الذي لم تكن اشغاله تسمح له حتى بالابتسام يبعدها عن طريقه قائلا :

— اذهبي الى مطبخك ولا يضايقينني هكذا.

على تلك الوتيرة صفت المعارضة في اقل من عام، وغدا خوسيه مونتيل اغنى واقوى رجل في البلدة. أرسل ابنته الى باريس، وتمكن من الحصول على وظيفة قنصلية لابنه في ألمانيا، ثم تفرغ لتوطيد امبراطوريته. لكنه لم يتمكن من الاستمتاع بثروته الهائلة ستة اعوام كاملة.

بعد ان تمت الذكرى الأولى لموته لم تسمع الأرملة السلم يصر إلا تحت ثقل خير سبي. كان احدهم يجيء مساء دائما. «للصوص مرة اخرى» كانوا يقولون. «البارحة ذهبوا بمجموع 50 عجلا». كانت ارملة مونتيل ساكنة في كرسيا الهزاز، قاضمة اظفارها، جاعلة من حقداء غذاءها.

— قلت لك هذا ياخوسيه مونتيل — كانت تقول، متكلمة وحدها — هذه بلدة كنود. انت مازلت ساخنا في قبرك وهاهم جميعا يديرون لنا ظهورهم.

ما رجع الى الدار احد. الآدمي الوحيد الذي رآته في تلك الشهور الطويلة طولا لا نهاية له التي لم يكف فيها المطر عن الهطل، هو الموظب السيد كار ميتشايل الذي ما دخل قط الى الدار بالمظلة مسدودة. لم تكن الأمور تسير سيرا احسن. كان السيد كار ميتشايل قد كتب عدة رسائل الى ولد خوسيه مونتيل. اوعز اليه بفائدة ان يجيء ليسير الأعمال بنفسه، بل انه وصل الى السماح لنفسه بالادلاء ببعض الملاحظات الشخصية حول صحة الأرملة. كانت الردود كلها مراوغة. اخيرا اجابه ولد خوسيه مونتيل بصراحة قائلا انه لا يحرق على العودة لخوفه من ان يثقبوه بطلقة رصاص. عندئذ صعد السيد كار ميتشايل الى حجرة الأرملة واضطر الى الاعتراف لها بأن الافلاس لا مفر منه.

— أحسن — قالت هي — لم اعد احتمل الجبن والذباب. خذ ما انت في حاجة اليه اذا اردت وخلني اموت في سلام.

الرابطة الوحيدة التي وصلتها بالعالم بعد ذلك هي الرسائل التي كانت تكتبها الى بنتها في اواخر كل شهر. «هذه البلدة تحمل بها اللعنة»، كانت تقول لهما. «ابقيا هناك نهائيا، ولا تخافا علي. أنا سعيدة وأنا أعرف انكما سعيدتان». كانت ابتهاها تتناوبان في الرد عليها. رسائلهما كانت دائما مرحة، كان بينا انها كتبت في اماكن فاترة ومضاعة جيدا، وان الفتاتين تريان نفسيهما منعكستين في مرايا كثيرة لما تتوقفان للتفكير. حتى هما لم تكونا تريدان العودة. «هذه هي الحضارة»، كانتا تقولان. «هناك، بالعكس، ليس وسطا مناسباً لنا. يستحيل ان نعيش في بلد متوحش يغتال فيه الناس لأسباب سياسية». كانت أرملة موتيتيل وهي تقرأ الرسائل تشعر بأنها في حالة افضل وتستحسن كل جملة برأسها.

وفي ذات مرة تكلمت لها بنتها عن اسواق اللحم بباريس. كانتا تقولان لها انهم هنالك يذبحون خنازير لونها متورد، ويعلقونها بكاملها في الأبواب مزينة بتيجان وأكاليل ازهار، في النهاية اضافت الرسالة بخط مختلف عن خط ابنتها : «تصوري ان اكبر وأجمل قرنفولة يجعلونها في عجز الخنزير». ابتسمت ارملة موتيتيل لأول مرة بعد عامين وهي تقرأ تلك الجملة. صعدت الى حجرتها دون ان تطفئ، اضواء الدار، وقبل ان تنام حولت اتجاه المروحة الكهربائية نحو الحائط. بعد ذلك اخرجت من درج المنضدة مقصا واسطوانة ضماد ومسيحة، وضمدت ظفر الابهام الأيمن الذي هيجه القضم. ثم بدأت تصلي، لكنها بعد قليل بدلت المسيحة الى يدها اليسرى، لأنها ما كانت تحس بالخرز عبر الضماد. سمعت للحظة رجة الرعد البعيد. بعدئذ نامت ورأسها مغمي على صدرها. تدرجت يدها حاملة المسيحة على جنبها، وعندئذ رأت «الماما الكبيرة» في الفناء بغطاء ابيض ومشط في حجرها، وهي تقتل القمل بإبهامها. سألتها :

— متى اموت ؟

رفعت «الماما الكبيرة» رأسها.

— لما يبدأ ديبب التعب في ذراعك.

ترجمة : محمد العشيري

— هذه القصة القصيرة ظهرت ضمن مجموعة «جنازة الماما الكبيرة» (1962) وحولت الى فلم من طرف المخرج الشيلي المعروف ميغيل ليتين.
عن كتاب :

- TODOS LOS CUENTOS (1947-1972) G. GARCIA MARQUEZ.

PLAZA Y JANES, S.A. EDITORES. 1976.

الارض البور

كانا بلا وجه، العرق يقطر منهما والظلام يأكلهما. لم يكن هناك إلا خيالهما الاديان بشكل غامض، الجسمان المتصان في ظلتهما. متشابهان ومع ذلك مختلفان جدا. أحدهما لا حياة فيه، ماش على مستوى الأرض بسلبية البراءة أو باللامبالاة المطلقة. الآخر مقوس لاهت بفعل مجهود جره بين الشجرات والزبل. كان من حين لحين يتوقف ليسترد أنفاسه. ثم يبدأ من جديد مقوسا أكثر عموده الفقري فوق حمله. رائحة المياه الراكدة للنهر لابد أنها كانت في كل مكان، الآن أكثر مع التوتنة ذات الخلاوة المنفرة للارض البور التي تنتن بالصدل وبراز الحيوانات، تلك الرائحة اللزجة بفعل الانذار برداءة الجو التي كان الرجل من حين لآخر يضربها بيده لينتزعها من وجهه. قطيعات من زجاج أو من معدن كانت تتصادم وسط العشب، وإن كان مؤكدا عدم امكانية أن يسمع أحد الاثنين ذاك الغناء الرقيق المواقط الطيفي. ولا ضجة المدينة الخافتة التي كان يبدو هناك أنها تهتم تحت الأرض. والذي يجر ربما كان يسمع فقط ذاك الصوت الرخو الخافت للجسم عند طفره على الارض وفحيح بقايا أوراق أو الضرب الخافت للحذاء على العلب والردم. أحيانا كان ظهر الآخر يعلق بالشجيرات الصلبة أو بحجر. عندئذ كان هو يفكه جارا إياه مغمغا صبيحة غاضبة أو مطلقا مع كل جهد الها... الهوائية التي يطلقها الشحانون لما يرفعون الحمل المستعصي على المجهود الكتفي. كان بينا أنه يزداد ثقلا. ليس فقط بفعل تلك المقاومة السلبية التي تتوقف بالحواجز بعناد من حين لآخر. ربما كذلك بسبب خوفه هو والاشمئزاز أو العجلة الآخذة في نهش قواه، دافعة إياه الى الانتهاء بسرعة.

في البداية جره من الذراعين. لو لم تكن الليلة مظلمة الى ذاك الحد لأمكن أن يرى زوجا الايدي المشبوبة، نسخة سلبية من كليشه يمثل عملية إنقاذ مقلوبة. لما علق الجسم من جديد، أمسك الساقين وأخذ يجره وهو يدير له ظهره ويخني جسمه حنيا الى الأمام ويرتكز بقوة على الحفر. أخذ رأس الآخر يهتز اهتزازا مسرورا، مفتطا على ما يبدو بالتغيير. بعثر مصباحا سيارة فجأة عند منعطف ضوء ارقى على شكل موجات على تلال الزبل وعلى العشب وعلى الأرض اللا مستوية. الذي كان يجر استلقى جنب الآخر. اكتسبا للحظة تحت تلك اللمسة الشاحبة شيئا من وجه، أحدهما كاب خائف، الآخر يكسوه تراب، وهو ينظر الى الاشياء لا متأثرا. عاد الظلام الى ارداراهما بسرعة.

قام وواصل الجرح قليلا، لكنهما كانا قد بلغا مكانا شجيرات أكثر ارتفاعا. أصلح وضعه على قدر استطاعته، غطاه بزبل وأغصان يابسة وردم. بدا أنه يريد فجأة حمايته من تلك الرائحة التي كانت تملأ الأرض البور أو من المطر الذي لن يتأخر سقوطه. توقف، أمر يده على جيبته التي يسبقها العرق، سعل وبرزق بغيظ. آنفذ سمع ذاك الاستهلال الذي افزعهم. كان يصعد ضعيفا مخنوقا من العشب، كما لو أن الآخر بدأ يشتكي بيبكاء طفل حديث الولادة تحت ضريحه الزبلي.

هم بالهروب، لكنه توقف مبهورا بفعل الومضة الفوتوغرافية ليرق قلع أيضا من الظلام الكتلة المعدنية للقنطرة، مريا إياه أنه لم يتعد كثيرا. حتى رأسه مغلوبا. جثا واقترب وهو يشم تقريبا ذاك الاستهلال الرقيق المخنوق الملح. قرب الكومة كانت توجد حزمة مبيضة. ظل الرجل برهة طويلة لا يعرف ماذا يجب أن يعمل. قام ليذهب، خطا خطوات قليلة مترنحا، لكنه لم يستطع التقدم. الاستهلال كان الآن يحجره. رجع شيئا فشيئا، باللمس، لاهتا. عاد الى الجنو وهو مازال مترددا. ثم مد يده. خشخش ورق الحزمة. وسط أوراق الجريدة كان شكيل بشري يتخبط. أخذه الرجل بين ذراعيه. كانت حركته خرقاء نسية، حركة من لا يعرف ماذا يعمل ولكن على كل حال لا مفر له من أن يعمل. انتصب ببطء كما لو كان مشمئزا من حنان فجائي شبيه بالضياح الأشد، وبعد أن خلع سترته، دثر بها المخلوق المبلل المتباكي.

ابتعد بالاستهلال عن العشب، مضاعفا سرعته تدريجيا، جاريا تقريبا، واختفى في الظلام.

ترجمة : محمد العشيري

— أوغوستو رووا باسكطوس. ولد في اسونثيون (الباراغواي) عام 1917. يعيش في المنفى منذ 1947. من أعماله : «ابن إنسان» (رواية 1960) و «أنا الأعلى» (رواية 1974) هو حاليا أستاذ اللغة الغوارانية (لغة هنود الباراغواي) بجامعة تولوز.
عن كتاب :

- ANTOLOGIA PERSONAL. AUGUSTO ROA BASTOS.

EDITORIAL NUEVA IMAGEN. MEXICO 1980.